(مملكة السماء)..
عندما تكرمت هوليود بإنصافنا!

صلاح الدين الأيوبي.. أيقونة سحرية تداعب أحلام المسلمين منذ احتلال فلسطين في منتصف القرن العشرين، ومثال نموذجي للبطل الأسطوري الذي يسعى صانعو الأفلام العرب إلى شرف تجسيده في أعمالهم، فقد أعيد تمثيل حكايته في السينما والمسلسلات العربية عدة مرات، وظل فيلم صلاح الدين مشروع العمر الذي سعى إلى إنجازه المخرج العالمي مصطفى العقاد على مدى أكثر من عشر سنوات، حتى توفي، أو قُتل عمداً كما يرى البعض، إلى أن بادرت هوليود مرة أخرى لتقديم هذا الدور ومن وجهة نظرها الخاصة، فحبَس العرب والمسلمون أنفاسهم، وتناقلوا الأخبار والشائعات منذ بداية الحديث عن تحضيرات فيلم (ردلي سكوت) (مملكة السماء) حتى وصوله إلى دور العرض، وما إن شاهدوه بأعينهم حتى تنفسوا الصعداء وبالغوا في تقديره والثناء على صانعيه!

قصة الفيلم

في عام **٢٠٠٥**، حقق المخرج البريطاني (رِدلي سكوت) -وهو من مواليد **١٩٣٧** ويحمل لقب فارس (Sir)- وعده بإنجاز فيلم تاريخي عن الحروب الصليبية يحمل اسم **(مملكة السماء)** أو **(مملكة الجنة/** Kingdom of Heaven)، بنصّ كتبه السيناريست اليهودي (وليام ماناهان)، وبطولة كل من أورلندو بلوم، إدوارد نورتون، ديفيد ثيولس، ليام نيسن، ناتالي

كاكس، ومايكل شين، إلى جانب الممثل السوري **غسان مسعود** الذي قام بدور صلاح الدين، والمصري **خالد نبوي**، والبريطاني- السوداني **ألكساندر صدّيق**، وبلغت كلفة إنتاج الفيلم نحو **١٣٠** مليون دولار.

يركز الفيلم على قصة الحدّاد (باليان) الذي يرفض في البداية التوجه إلى القدس مع والده، ثم يحج إلى المدينة المقدسة مضطراً ليكفّر عن تورطه في قتل أحد الرهبان. ومنذ وصوله إلى ميناء الأرض المقدسة (مسينا) الذي يعد نقطة انطلاق الصليبيين إلى القدس، يبدأ البطل الصليبي باكتشاف التعصب الديني لدى الأوربيين الذي يتجلى في مواعظ التحريض ضد المسلمين حيث لا يُعد قتلهم خطيئة.

يصل (باليان) إلى القدس، ويفاجأ بنبأ وفاة والده الذي يورثه حكم مقاطعة (أيبلان)، وهي إحدى حاميات الطريق إلى القدس، وهنا تبدأ تجليات الصورة المثالية للرجل الأبيض الذي جاء من أقصى العالم ليعمر الأرض، فيوحد القائد الشاب جهود جميع المزارعين والعمال في إقطاعيته ليحولوا الصحراء إلى جنة خضراء، علماً بأن الفيلم قد صُوّر في واحات المغرب الصحراوية والتي لا تشبه الطبيعة الجغرافية لأرض فلسطين.

في تلك الأثناء، ينشب صراع بين الملك (بالدوين الرابع) المصاب بالجذام وبين (حراس الهيكل) المتعصبين، ومعهم بارون الكرك (رينالد)، والمسمى عند العرب أرناط، والقائد (جي رينو)، فيتعمد هؤلاء الإغارة على قوافل المسلمين ونقض الهدنة مع صلاح الدين الذي يحشد جيوشه لاستعادة حصن الكرك، ويلتقي القائدان أمام أسوار الحصن فيلقي صلاح الدين التحية: «السلام عليكم» ويبدي استعداده للانسحاب بشرط معاقبة البارون الخائن فيوافق الملك، وفي نهاية الحوار يعِد صلاح الدين الملكَ بإرسال أطبائه إليه لمعالجته من الجذام.

يشرف الملك بعدها على الموت، ويُظهره الفيلم حتى اللحظة الأخيرة رجلاً في غاية النبل والأخلاق، فتُعين ابنته (سيبيلا) زوجها (جي رينو) ملكاً على عرش القدس، ليبادر على الفور بإطلاق سراح بارون الكرك الذي يتحرش مجدداً بالمسلمين وينقض الهدنة. فيتواجه الجيشان مجدداً في حطين بالرغم من نصيحة (باليان) بعدم الخروج، ويتجنب المخرج تصوير هزيمة الصليبيين مكتفياً بعرض جثثهم التي تنهشها النسور مع وصول (باليان) إلى أرض المعركة بعد انتهائها، فتشمئز نفسه ويتزايد نفوره من **التعصب**، وتتوجه عدسة المخرج إلى كوم الجثث والرؤوس الذي نصبه المسلمون ليقذفوا في قلوب الآخرين الرعب، وهو تقليد عانى منه المسلمون أنفسهم في حملات التتار ولم يُذكر في كتب التاريخ قيام المسلمين بشيء من ذلك!

في خيمة صلاح الدين، نجد (رينالد) و(جي رينو) أسيران ينتظران مصيرهما، ثم نفاجأ بصلاح الدين وهو يباغت (رينالد) الخائن بضربة سيف قبل أن يحكم بقطع رأسه جزاء خيانته المتكررة[(١)]! لكنه يعفو عن الملك (جي رينو) فليس من شيم الملوك أن يقتل أحدهم الآخر إذا وقع في الأسر. ثم يتابع صلاح الدين حشد جيوشه لاستعادة القدس، في حين يُعدّ (باليان) العدة لحمايتها بعد أسر ملكها ومقتل معظم مقاتليها في حطين، حيث لم يبق إلا العوامّ، فيحاول أسقف القدس إقناع (باليان) بالهرب لعدم قدرتهم على التصدي للجيوش الجرارة، ولكن (باليان)

(١) يروي المؤرخون أن أرناط غدر بقوم من مصر عند الشوبك فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، ولكنه استخف بالنبي ﷺ وقتلهم، فنذر صلاح الدين أن يقتله إن ظفر به، وعندما وقع الملك وأرناط في الأسر يوم حطين أوقف صلاح الدين أرناط بين يديه وقال له: هاأنا أنتصر لمحمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسل سيفه وضربه.

يرفض هذا العرض مصراً على البقاء وحماية شعبه، ثم يلقي خطبة عصماء يتحول الدهماء على إثرها إلى أبطال.

تدور معركة دامية عند أسوار القدس على مدى ثلاثة أيام، يقدمها المخرج عبر مشاهد ميلودرامية مطولة لاستبسال الصليبيين، وفي إطار تاريخي مزور للحضارة المصطنعة التي يرفل فيها الصليبيون من تقنيات وخطط عسكرية محكمة يباغتون بها المسلمين، إلى أن يقف صلاح الدين مندهشاً وعاجزاً أمام مشهد احتراق وانهيار أبراجه الخشبية مثل أحجار (الدومينو)، في حين لا يحتمل البطل (باليان) رؤية أحد الجنود المسلمين وهو يرفع رايته عند أعلى السور، فيندفع بكل بطولة ويقتل كل من يقف في طريقه ليرمي براية الهلال إلى الأرض في مشهد درامي مؤثر.

بعد إقناع المشاهدين ببطولة الصليبيين ونبل أهدافهم، يتمكن المسلمون بالمصادفة من اكتشاف نقطة ضعف في أحد الأسوار فيتسللون منها إلى المدينة، وعندها فقط تميل الكفة لمصلحة المسلمين حيث تغلب الكثرة الشجاعة، ويضطر (باليان) إلى الحوار مع صلاح الدين، وهو مرفوع الرأس. وهنا نجد (باليان) قد فقد كل ما كان لديه من إيمان ولم يعد في نفسه أي أثر للمقدسات، مهدداً بعدم الخروج من القدس حتى يدمر كل مقدساتها، كي لا يُبقي فيها شيئاً يطمع فيه أحد من المؤمنين بأي دين[1]، فيجيبه صلاح الدين بحنكته السياسية واعداً بالصفح عن جميع

(١) يذكر المؤرخون أن الصليبيين هددوا بتدمير مقدسات المسلمين دون غيرهم من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبقتل من لديهم من أسرى المسلمين، وعددهم نحو خمسة آلاف، عندما خافوا على أنفسهم من المصير الذي لقيه على أيديهم مسلمو القدس من مجازر، فكان تهديدهم رداً انهزامياً بائساً كما في (خيار شمشون)، ولم يكن كما صوره الفيلم على أنه تفاوض شريف جاء بعد اكتشاف حقيقة سخف الأديان، وأنه تدمير للمقدسات التي عبثت بعقول البشر من شتى الأديان ودفعتهم إلى هذا العنف!

المقاتلين بشرط مغادرتهم المدينة، وعندما يذكّره (باليان) بمجازر الصليبيين في حق المسلمين عندما احتلوا القدس يجيبه بنبل: «أنا صلاح الدين.. صلاح الدين»، وما إن يُدِرْ صلاح الدين ظهره ويخطُ بضع خطوات حتى يسأله (باليان): «ماذا تعني لك القدس؟» فيستدير صلاح الدين ويجيب على الفور: «لا شيء»، ثم يستدرك رافعاً قبضة النصر: «كل شيء»!

يُستقبل (باليان) فور عودته إلى القدس استقبال الأبطال، وتبدأ قوافل الصليبيين بالجلاء من المدينة، وتمشي الملكة (سيبيلا) بين عامة الناس وكأنها واحدة منهم. وفي المشهد الأخير نرى ملك إنجلترا (ريتشارد قلب الأسد) يبحث عن (باليان) في أثناء مروره بفرنسا في الطريق إلى الشرق، فيطلب منه الانضمام إلى حملته لاسترداد القدس، لكن (باليان) يرفض العرض ويصر على البقاء حداداً مغموراً في الريف الفرنسي قائلاً: «مملكة السماء يفعل الله بها ما يشاء»، ويتابع حياته مع زوجته الجديدة (سيبيلا) في بيت متواضع[١]، بعد أن تخليا عن أطماع الجاه والسلطة لمن يبحث عنها من الملوك ورجال الدين.

رسالة الفيلم

نبدأ قراءتنا لرسالة الفيلم مع التذكير بنقطتين: الأولى هي الحوار الذي جمع الفنان غسان مسعود مع مخرج الفيلم في أثناء مقابلة اختيار الممثل الذي سيؤدي دور صلاح الدين، ففي نهاية الحوار سأله المخرج: هل

(١) الحقيقة هي أن صلاح الدين أطلق سراح (جي رينو) وأعاده إلى زوجته (سيبيلا)، فلجآ إلى طرابلس ثم أنطاكية، وحاولا استعادة صور التي كانت آخر معقل للصليبيين وعلى هدنة مع صلاح الدين، ولكن أميرها لم يعترف به ملكاً فذهب إلى حصار عكا التي كان صلاح الدين قد استردها، ولم تكن النهاية على ذلك النحو الرومنسي الذي اخترعه مؤلف القصة!

تعتقد أن صلاح الدين كان رجل دولة أم رجل حرب؟ وأجاب مسعود: بل رجل دولة. وفي المساء حصل على الدور بالفعل!

النقطة الثانية هي تصريح أدلى به الممثل السوري باسم ياخور للصحافة السورية بأنه كان أحد المرشحين لهذا الدور، ولكنه لم يحصل عليه لأن المخرج أراد إظهار صلاح الدين في مظهر القائد السياسي، وهو ما يتعارض مع ضخامة جسم ياخور، وكأن المخرج قد استكثر على صلاح الدين صفة البطولة حتى في جسده، مع أن التاريخ يؤكد على فروسيته منذ صغره.

بالعودة إلى الفيلم، نجد أنه يدين دوافع القادة الصليبيين لتلك الحملات التي يقر بحصرها في السلطة والثروة، ويقدم الصورة النمطية للتدين في الغرب الحديث؛ التي تقوم على العلاقة التي كانت قائمة في القرون الوسطى بين الكنيسة والملوك، فرجال الدين يشكلون طبقة مستقلة في المجتمع تقوم بمهمة السيطرة على عقول الناس وقلوبهم، ويتحالف معها الملوك والنبلاء الذين يسيطرون على أجساد الناس وأرزاقهم، وبهذا المنظور يصبح الدين مجرد كذبة وضعها المنتفعون من رجال الكنيسة، ثم وُظفت بالتواطؤ مع القادة لامتلاك ولاء الناس والحجْر على عقولهم، ثم تجييشهم لتحقيق أطماع كل من رجال الدين والسلطة في السيطرة على (أرض اللبن والعسل) في المشرق الإسلامي.

انطلاقاً من هذه الفلسفة يقدم الفيلم رؤيته اللادينية للخروج من أتون التعصب، وهو الحل الذي يكتشفه (باليان) تدريجياً على امتداد الفيلم، إذ يبدأ طريقه إلى القدس بمحض المصادفة بعد تورطه في قتل الراهب، وهناك يصحو على حقيقة الدوافع الخسيسة للقادة ورجال الدين عندما يصارحه أحد القادة أمام مشهد جثث القتلى في حطين بأنه لم يعد يصدق أحداً بعد اكتشافه خبث نيات الجميع من حوله، ويعرض عليه مرافقته في

الانسحاب من المنطقة كلها، فيرفض (باليان) مصراً على الدفاع بشرف عن الشعب المستوطن لهذه الأرض. وعندما يحاصر صلاح الدين القدس يتكرر موقف التخاذل من أسقفها الذي يطلب منه الهروب، ولا ينتهي هذا المشهد إلا بعد أن تترسخ لدى المشاهد صورة رجل الدين الانهزامي والمتخاذل، والذي لا يكترث لحياة الرعاع من الناس ولا يجد جواباً عن سؤال (باليان) عن مصيرهم في حال فراره سوى القول: «إنها مشيئة الرب».

وهكذا تضعف ثقة (باليان) في الدين كله، ليخطب في شعبه كأحد النواب الديمقراطيين في البرلمانات الأوربية الحديثة مستخدماً مصطلحات حداثية مألوفة؛ من قبيل الدفاع عن الإنسان لكونه إنساناً، وليس عن الحجارة التي تبنى بها دور العبادة. وما إن تطرُق هذه الكلمات الملهمة أسماع الرعاع المتعصبين، الذين أغفل الفيلم مجازرهم في حق المسلمين في القدس، حتى تستنير عقولهم بنور الحداثة وينبذون أسقفهم المتخاذل، ثم ينقلبون أبطالاً للاستبسال في الدفاع عن أنفسهم وعن إنسانيتهم، وليس عن الحجارة والأرض التي جاؤوا لتقديسها!

وللمزيد من إقناع المشاهد بعدم جدوى الدين وخلوه من العقل يقدم (باليان) بعض البراهين العقلية، فعندما يأمر بإحراق جثث القتلى خوفاً من انتشار المرض يعترض الأسقف بحجة وجوب تركهم على حالهم كي يُبعثوا يوم القيامة، فيجيب (باليان) بأن الرب الذي يأمر بترك الجثث حتى تتفسخ وتقتل الأحياء بالعدوى هو رب لا يستحق العبادة.

ولا تقتصر الإدانة بالطبع لدين الأوربيين بل تمتد إلى الإسلام الذي يزعم الفيلم أن ملوك المسلمين قد وظفوه أيضاً لمصالحهم الدنيوية، فبعد تصريح صلاح الدين بأن القدس لا تعني له شيئاً يعيد الجواب مستدركاً بأنها في الحقيقة «كل شيء»، وهذا الموقف يلخص الصورة التي أرادها

الفيلم لصلاح الدين فهو ليس بطلاً يدافع عن مقدسات المسلمين، بل قائد سياسي محنك ينصب اهتمامه -كالقادة الصليبيين- على الأرض التي سيبسط نفوذه عليها، والقدس ليست أكثر من ورقة رابحة يمكنه من خلالها حشد المسلمين تحت رايته لمكانتها المقدسة في نفوسهم!

بالتوازي مع هذا الموقف المفترى على صلاح الدين، يحرص الفيلم على إثبات نُبل البطل الصليبي حتى في حال كفره بالأديان، فعندما يكتشف (باليان) حقيقة أن القدس ليست سوى أكذوبة وضعها الملوك عبر التاريخ ليسيطروا بمعابدها المقدسة على عقول الشعوب، وعندما تسقط أمام عينيه من يد المتعصبين الصليبيين إلى يد المتعصبين المسلمين الذين يقودهم قائد محنك لا يقل براجماتية عنه؛ نجده يسلمها إلى صلاح الدين غير عابئ بها ما دام صلاح الدين قد تمسك بوعده بعدم التعرض للناس بالأذى خلال جلائهم عنها، ثم يعود إلى شعبه ليبشرهم بسقوط هذه المدينة التي لا تستحق الموت من أجلها، ويقول: «إذا كانت هذه هي مملكة الرب فليفعل بها الرب ما يشاء».. إذن فلنترك الرب يتصرف في مملكته، أما نحن البشر فسننصرف إلى شؤوننا الدنيوية!

وتجدر الإشارة هنا إلى تصريح غسان مسعود في برنامج (بالعربي) لجيزيل خوري على قناة العربية بأنه قرأ مئات الصفحات عن صلاح الدين، ولأنه لا يريد تبني ما قيل عنه من انتقادات فقد اكتفى بنقل آراء من يقول بأنه أسس للديكتاتورية والإقطاعية في هذه المنطقة من العالم، مُقرّاً بعدم رغبته في إثارة حساسية من يحب صلاح الدين، وأبدت جيزيل على الفور إعجابها بهذه الفكرة!

وبالعودة إلى رسالة الفيلم، ثمة مقاصد أخرى ما زالت بحاجة إلى البحث، فبعد إدانة الفيلم لدوافع الصليبيين في احتلال (أرض اللبن والعسل)، وبعد تصفيق الكثير من النقاد العرب لهذه الجرأة، يتجنب

الفيلم الحديث عن ضرورة خروج المحتل وعودته إلى وطنه بل يقدم بديلاً آخر يتجلى في صورة المحتل النظيف التي رُوج لها طويلاً في حقبة **الاستعمار**، وبهذا تصبح السيادة على الأرض المحتلة أمراً مشروعاً، ويعلق الأكاديمي اللبناني- الأمريكي أسعد أبو خليل على هذا الطرح بقوله: «شعرت بحزن، عندما رأيت بطل الفيلم، وبعبقرية غربية يعلّم هؤلاء العرب الأقل منه كيف يحفرون للحصول على ماء كأنهم لم يكونوا يقومون بهذا الأمر منذ قرون. إنه أمر يشبه الخرافة الغربية بأن هجرة الصهاينة جعلت (الزهور تكسو الصحراء) في فلسطين»!

وهنا نستنتج رسالة أخرى مفادها أن الحل الأمثل للصراع القائم اليوم على أرض فلسطين هو أن يلقي الطرفان السلاح، وأن يسير الفلسطينيون على خطا صلاح الدين عندما رضي بالهدنة مع الصليبيين الذين عاشوا بوئام مع السكان الأصليين تحت راية الملك العادل (بالدوين الرابع)، وأن يكف كل منهما عن الاستماع إلى صوت (المتطرفين) في الجانبين، وعندها سينعم الفلسطينيون بالسلام في ظل (الديمقراطية الإسرائيلية)، وسيتمكنون من بناء دولة فلسطينية **معتدلة** ومنزوعة السلاح! وإذا لم يقبلوا بالأمر الواقع واستمروا في المطالبة بحق العودة، فسيستميت المحتلون في الدفاع عما ورثوه عن آبائهم كما فعل (باليان) عندما خطب في جيشه معترفاً بأن القدس لا تستحق الدفاع عنها من أجل معابدها بل من أجل البشر الذين يحتلونها، ولما كانت القداسة مرفوعة عنها فليس لأحد حق انتزاعها ممن يعمرها ويحسن استغلالها.

علاوة على ما سبق، يقر الفيلم بحق الجيل الثاني من الصليبيين الذين وُلدوا في القدس بالبقاء فيها، حتى إن كانت دوافع آبائهم في احتلالها متهافتة، إذ لا ذنب للأبناء في أكاذيب آبائهم، في حين لا يحق للمسلمين المطالبة بأرض تم انتزاعها من آبائهم قبل أن يُخلقوا. وبهذا المنطق يفقد

الفلسطينيون حقهم في العودة، حتى إن ثبت خطأ الصهاينة المؤسسين في طرد آبائهم قبل ستين سنة من أرضهم، ويبقى الحل إذن في بقاء الجيل الثاني من الصهاينة على أرضهم، وبقاء الجيل الثاني من الفلسطينيين في الشتات!

ماذا كسب العرب والمسلمون من الفيلم؟

مع كل هذه الرسائل السياسية والأكاذيب التاريخية التي يمتلئ بها الفيلم، تسابقت وسائل الإعلام العربية على مدى عدة شهور للثناء على الفيلم وتتويج مخرجه (ردلي سكوت) على عرش الإنصاف التاريخي للحقيقة التي تجاهلها الغرب قروناً طويلة، فقد بهرهم مشهد صلاح الدين وهو يدخل إلى الكنيسة بعد فتح القدس ليرفع الصليب عن الأرض ويضعه باحترام على المذبح، علماً بأن هذا المشهد كان من اقتراح غسان مسعود نفسه، ولم يكن مكتوباً في نص الفيلم[1]، أما مشاهد الإساءة والأكاذيب والدعاية السياسية التي يحفل بها الفيلم فقد تغاضى عنها الكثيرون، وكأن سعادتهم بهذا الجزء اليسير من حقهم في الإنصاف شغلتهم عن الالتفات إلى كل ما سبق!

ويزداد الموقف سوءاً مع مشاركة العرب في الفيلم وبكثافة لم تكن هوليود قد اعتادت عليها بعد، فهناك ممثلان عربيان بارزان، وآخر من أصل عربي (ألكسندر صدّيق) ومئات الممثلين (الكومبارس) من المغاربة، فضلاً عن تصوير معظم مشاهد الفيلم على أرض المغرب.

---

(١) يشير بهاء الدين بن شداد في (السيرة الصلاحية) إلى أن المسلمين أزالوا صليباً كبيراً، كان الصليبيون قد نصبوه على قبة الصخرة المشرفة، ولم يجد المؤرخون في ذلك ما يطعن في انفتاح المسلمين على الآخر واحترام حقه في الحياة وحرية العبادة، كما لا نجد اليوم في هذا المشهد المصطنع في الفيلم أي ضرورة لإثبات تسامح المسلمين أو لنفي تهم الإرهاب عنهم!

مع ذلك؛ لم يلق الفيلم في الغرب ما لقيه من احتفاء في الشرق، بل لم يحقق الإقبال الكافي في الصالات الأمريكية بما يتناسب مع حجم تكاليفه الضخمة، كما نشرت الصحافة الأمريكية الكثير من التعليقات العنيفة في حق الكاتب والمخرج بسبب ما كشفاه من زيف الصليبيين، بل صرّح البروفسور المتخصص في تاريخ الصليبيين بجامعة كمبريدج (جوناثان رايلي سميث) لصحيفة (ديلي ميل) البريطانية بأن «الفيلم تافه، وأنه خطير جداً على العلاقات بين الغرب والعالم العربي». وعندما أراد المخرج تصوير بعض المشاهد الخاصة بالقدس في كنيسة (ميزكيتا) الكاثوليكية في قرطبة التي كانت مسجداً كبيراً لمسلمي الأندلس، واجهه أسقف الكنيسة بالرفض المطلق، فكان البديل هو الانتقال إلى المغرب!

وللإنصاف؛ لا بد من الإقرار ببعض المواقف النبيلة التي سمح الفيلم لصلاح الدين بالظهور فيها، فهو يعرض على عدوه الملك المساعدة بإرسال أطبائه إليه، كما لا ينكث العهود ولا يعامل أعداءه بالمثل، حتى إن افتعلوا المجازر في حق المسلمين، وقد أقر المؤرخون الأوربيون على مرّ العصور بهذه الصورة المثالية لصلاح الدين حتى أصبح نموذجاً للعدو النبيل. ولكن هذا لا يجب أن يمنعنا من إدانة الفيلم الذي لم يستطع نفي مساوئ الصليبيين فأقام قصة الفيلم كلها حول صورة أسطورية للبطل الصليبي (باليان) كي يتخلص من عقدة الذنب، ثم دفع الشعب الصليبي كله للوقوف معه لتبقى أخطاء الطغاة مجرد حالات شاذة.

وإذا كان المسلمون قد كسبوا تلك الصورة النبيلة لصلاح الدين، فقد دفعوا الضريبة في المقابل عندما تقتصر دوافعه لمهاجمته الصليبيين على نكثهم للهدنة، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة لضم القدس إلى إمبراطوريته، وعندما يغفل الفيلم حقيقة وقوف المسيحيين العرب إلى جانب صلاح الدين ضد الصليبيين في القدس، وعندما يغفل أيضاً حقيقة أن الصليبيين

لم يعودوا إلى أوربا بعد فتح القدس بل نزح الكثيرون منهم إلى صور التي ظلت على الهدنة، كما عاودت (سيبيلا) مع زوجها (جي رينو) الكرة وحاولا استعادة عكا!

لقد خسر العرب والمسلمون في هذا الفيلم حقيقة كبرى لا توافق أبداً هوى هوليود، وهي أن فلسطين أرضُهم سواء لكون الفلسطينيين هم سكانها الأصليين -منذ عصر الكنعانيين- أو لأن معظم سكانها الفلسطينيين قد اعتنقوا الإسلام وعاشوا في كنفه بسلام مع اليهود والمسيحيين، أو لأن المسلمين الذين فتحوا القدس في عهد عمر رضي الله عنه كانوا هم الوحيدين الذين لم يسفكوا دماء أهلها ولم يضطهدوا من بقي منهم على دينه في ظل الحكم الإسلامي. ولكن الفيلم يعطي الحق في السيطرة عليها للأقوى، فمن كان يمتلك السلاح والقوة فإن استيلاءه عليها مشروع حتى إن كان لا يؤمن في قرارة نفسه بقداسة شيء منها، وهذا هو بالضبط ما تفعله الصهيونية اليوم في فلسطين.

هل نجح الفيلم في التشجيع على الحوار بين الحضارات؟

وجد بعض المثقفين العرب في الفيلم فرصة تاريخية للحوار مع الغرب، حتى وصل الأمر ببعضهم، ومنهم غسان مسعود، إلى التذكير بأن العرب أطلقوا في الماضي على الغزاة الأوربيين اسم الفرنجة وليس الصليبيين، وأن هذا الاسم قد ابتكره الأصوليون الإسلاميون في العصر الحديث[(١)] (!)، ولعل الأستاذ مسعود لم يعثر في مئات الصفحات التي قرأ فيها عن تاريخ صلاح الدين -وفقاً لتصريحه- على حقيقة أن الفرنجة هم الذين أطلقوا على أنفسهم اسم (Cruse Signati) أي (الموسوم بالصليب) بعد أن اتخذوا الصليب شعاراً لحملاتهم التي كانت الأطول في

(١) برنامج (بالعربي مع جيزيل خوري)، موقع قناة العربية نت.

تاريخ الحروب بين البشر، أما لفظ الصليبيين (Crusaders) فنحَتَه المؤرخون الأوربيون في القرن الثامن عشر وتُرجم إلى العربية كما هو[١]!

ومع أن بعض النقاد يذكّرون بصعوبة الثقة في فيلم وضع نصه كاتب يهودي وأنتجته شركة (فوكس) التي يملكها (روبرت مردوخ)، أكد الأستاذ غسان مسعود في لقاءاته الصحفية حرصه طوال الوقت على أن يكون الفيلم منصفاً وعادلاً، مستنكراً الاعتراض على يهودية الكاتب لأن «نحو ٨٠٪ من ثقافتنا الأدبية والمسرحية والسياسية ناتجة عن منظّرين وكتّاب يهود مثل ماركس ومارخولد دون أن يعترض أحد»[٢](!) كما برّأ المخرجَ من تهمة الانحياز[٣]، مع أنه رفض فيما بعد -وبموقف يستحق الثناء- المشاركة في فيلم (**جسد الأكاذيب**/ The Body of Lies) للمخرج نفسه عندما لمس فيه ما يسيء إلى العرب والمسلمين[٤].

من جهة أخرى، اختار بعض الكتاب العرب التسامح مع صناع الفيلم لأنهم صنعوه للغرب وليس للمسلمين، وهذا في رأيهم يبرر ظهور الفيلم

(١) للاستزادة:
- موقع العهد الجديد www.newadvent.org
- الموسوعة العربية، دار الفكر، دمشق.

(٢) جريدة تحولات، العدد ١، تموز/ يوليو ٢٠٠٥.

(٣) يتفق الممثل المصري خالد نبوي مع غسان مسعود في هذا الرأي، بل يعجب من عدم حصول المخرج على ما يستحقه من تكريم في الوسط العربي! [ورد ذلك في لقاء أجري معه في برنامج (نقطة تحول) على قناة mbc، الأربعاء ٧ نيسان/ أبريل ٢٠١٠].

(٤) من المهم التذكير بأن (ردلي سكوت) سبق أن أخرج فيلم (Black Hawk Down) عام ٢٠٠١ بدعم ومساعدة من البنتاغون، والذي يحكي قصة سقوط طائرة هليكوبتر أمريكية في مقديشو بالصومال، ويقدم الصور النمطية المعروفة لـ (الإرهابيين المسلمين) في هذا البلد الإفريقي.

بتلك الصورة، وقد نتفق معهم في تفهم هذا المبرر لاختيار أدوار البطولة من الطرف الآخر أو تصوير المعارك التي تظهر بطولات الصليبيين مع تجاهل المعارك الأخرى التي سقطوا فيها ضحايا وأسرى مثل (حطين)، أما تزوير التاريخ لتحويل الهزيمة والخيانة وسفك الدماء إلى بطولة ونبالة وإحياء للأرض فهذا لا يبرره إلا المنطق الذي يحترف تزوير الحقائق لمصلحته، مهما كانت واضحة ومعروفة، وهو ما سجله التاريخ بدءاً من الحملات الصليبية ومروراً بالاستعمار والعولمة، وانتهاءً باحتلال فلسطين والعراق وأفغانستان!

علاوة على ذلك، لم يكتف البعض بالتبرير بل أثنى على الفيلم وصانعيه لإدانته الحروب وعرضها في مظهر مقيت، مثل تقزز (باليان) من رؤية الجثث في (حطين)، وعدم خوضه حرب الدفاع عن القدس إلا مضطراً، وحرصه مع الملك (بالدوين الرابع) على الحوار والسلم، وحرص صلاح الدين أيضاً على السلام والمهادنة، مما يعني أننا أمام مشروع للحوار بين الحضارات لإحلال السلام العالمي بدلاً من الحرب والعنف، والحوار بدلاً من التطرف، وربما اللادينية بدلاً من الدين.

قد يكون افتراض دعوة الفيلم إلى الحوار صحيحاً، ولكن ما جدوى تقديمها في صورة محشوة بالأكاذيب؟ ولماذا يُقدَّم البرابرة في صورة شعب متحضر مع أن المؤرخين الغربيين أقروا بأنهم لم يتعلموا عادات النظافة إلا بعد مخالطة المسلمين في حروبهم الطويلة وسرقة كتبهم ومنجزاتهم العلمية التي لم يعلموا بوجودها من قبل[١]؟ وما الغاية من

(١) لمزيد من المعلومات حول أثر الحروب الصليبية الحضاري في أوربا:
- إرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة، بيروت.
- د. عمار النهار: شمس الحضارة العربية الإسلامية، دار أفنان، دمشق.

ظهور القائد المجاهد صلاح الدين في صورة رجل سياسة علماني[١]؟ وهل يمكن القول بأن هذه الإضافات هي مجرد اجتهادات تحكمها الضرورة الفنية لكتابة السيناريو؟!

إن الصورة التي يريد الفيلم أن يبني عليها حواراً بين الشرق والغرب تقوم أساساً على التخلص من عبء التاريخ المشين، فبعد أن جرت العادة على كيل التهم للمسلمين وادعاء العصمة عن الخطأ، فإن كل ما يُقدم لنا اليوم لا يزيد على الإقرار بأن المسلمين كانوا أصحاب حضارة وأمانة مع الاستدراك في الوقت نفسه بأنهم لم يكونوا وحدهم كذلك، فالأوربيون كانوا يتحلون أيضاً بكل تلك الصفات، بل يحاكمون كل من يشذ عنها. ولأن الغرب قد تخلص من عقدة الذنب وعبء التاريخ الملطخ بالدم عبر التبرؤ من مسيحيته وإحلال اللادينية بديلاً عنها، فيجب على المسلمين السير على خطاه وأن يتخذوا من صورة صلاح الدين في الفيلم النموذج المثالي للقائد المسلم البراغماتي الذي يمكن للغرب التحاور معه.

الفيلم يتجاوز في أهميته السرد التاريخي لأحداث وقعت في مرحلة الصدام بين أوربا المسيحية والشرق الإسلامي، فالصدام مع الأسف ما زال قائماً حتى هذه الساعة ولكن في صور أخرى، ومع أن الغرب قد انقسم منذ **عصر التنوير** إلى فريقين متصالحين: متدين وعلماني، إلا أن كلَيهما يتخذ الموقف نفسه من المسلمين، فالبروتستانت ينتظرون معركة

---

(١) أسهب المؤرخون العرب في وصف عبادة القائد صلاح الدين وتقواه، والذي لم يفتح القدس إلا بعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب على الإصلاح الديني والتربوي في مصر والشام، والذي قطع عن نفسه ملذات الحياة منذ اتصاله بنور الدين الشهيد وعزمه على تحرير البلاد من الوجود الصليبي. ولم يتحقق له هذا المجد إلا بعد مواجهة اثنين وعشرين ملكاً أوربياً، وخوض أربع وستين معركة، وتحرير خمسين مدينة وبلدة.

هرمجدون التوراتية لإبادة المسلمين وإقامة مملكة الرب على أرض فلسطين، والعلمانيون عاجزون عن التعايش في كوكب واحد مع أصحاب ديانة توسعية ذات ثقافة مستقلة. لذا فإن الدعوة إلى الحوار من قبل من يرى مثل هذا الفيلم عملاً منصفاً ستبقى في رأينا مجرد دعاية إعلامية ونفاق دبلوماسي، وإذا أراد المسلمون حقاً أن يصلوا إلى نتيجة ما من هذا الحوار فحبذا لو وحّدوا موقفهم أولاً قبل أن ينفرد فريق دون غيره بإقرار ما يريده نيابة عن المسلمين جميعاً، ثم ينسب إلى نفسه قيم الانفتاح والتسامح والرغبة في الحوار، في حين يُتهم الآخرون بالوقوع في أسر **نظرية المؤامرة**[١]!

---

(١) للاطلاع على نموذج للمقالات التي سارعت إلى تقريظ الفيلم والسخرية بمنتقديه، انظر: بدرية البشر: العربي في هوليود، صحيفة الشرق الأوسط، ١٥ أيار/ مايو ٢٠٠٥.